

دخول الموحدين إلى قلعة بني حماد × نظرات وتأملات ×

بقلم الأستاذ: حبيب صافي
جامعة وهران

المتوالية عليها، ومن بين تلك الأحداث دخول الموحدين وسيطرتهم على ملك الحماديين، وبخاصة سيطرتهم على القلعة⁽¹⁾ وبجاية لأنهما المعقل الرئيس لحكم تلك المملكة، فالقارئ لما كتبه المؤرخون عن ذلك سيجد الكثير من التأملات والنظرات التي تدعو إلى كثير من التحقيق والتحليل، وخاصة تاريخ الحماديين والموحدين والمرابطين، الذي يعتبر من أهم المراحل التي مر بها مغربنا.

قامت دولة الموحدين على أسس ومبادئ معروفة، فقد حاربوا المذهبية الفقهية - وخاصة كتب المالكية لأن المذهب المالكي كان هو السائد بالمغرب والأندلس آنذاك - بحرقهم لكتب الفروع وقالوا: أن الفقه يؤخذ من الكتاب والسنة

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
أما بعد:

إن الدراسة الموضوعية للتاريخ من أصعب وأهم الدراسات في حقل البحث العلمي الجاد الموصل إلى نتائج تقارب الحقيقة وتلامسها، لأنه مثل تلك الدراسات تعاني من التدخلات العاطفية المبنية على النزعات والعصبية الطائفية والعرقية، وتحت تأثيرات سياسية واجتماعية وثقافية وغيرها.

والموضوع الذي بين أيدينا يعالج فترة تاريخية حساسة عانت فيها منطقة الجزائر وخاصة الوسط منها من حروب ونزاعات ساهمت في زعزعت المنطقة زعزعة جعلتها مدونة تاريخية للعديد من الأحداث المتعاقبة تعاقب الملوك والدول

ثم لمتونة ثم مصمودة ثم زناتة⁽³⁾ ولنبداً ذلك بالأحداث الدائرة في المنطقة قبيل سيطرة الموحدين:

مخاض الأحداث بالمغرب الكبير:

في ظل حكم الفاطميين غير المستقر بالمغرب الكبير اقتسم البربر حكم المغرب الكبير، فبالمغرب الأقصى حكمت قبائل زناتة، وبالوسط تنازع بني زيري الصنهاجيين وبني عمومته من الحماديين فحكم المتأخرون الجزائر مدة تسمى بحكم بني حماد أو الدولة الحمادية، وكانوا امتداداً لحكم بني عبيد الفاطميين، أما بتونس فقد حكم بنو زيري ولكن حكمهم قد فني على يد الهلاليين وبني جشم، ففي ظل حكم المعز بن باديس بتونس -وهو من أهم وأعظم ملوك بني زيري- انفصلت دولته عن الدولة الفاطمية بعد ولاء طويل، فقد خطب لخلفاء بني العباس، ونزع من الآذان عبارة (حي على خير العمل) وكان ذلك سنة ثلاث وأربع مائة للهجرة (443هـ)، وهو ما جعل المغرب في ذلك الزمان منطقة غليان فالمستنصر الفاطمي ثارت ثائره لما فعله بن باديس، فرأى أن يثير بعض القبائل

مباشرة، كما أنهم قد استطاعوا تقويض الحكم الفاطمي الشيعي الذي كان سائداً في المغرب بقضائهم على المواليين له من صنهاجة وغيرهم، كما استطاعوا فتح صراع كبير مع الصليبيين واستردوا الكثير من المناطق الإسلامية التي كانت بأيدي النصارى، كل ذلك مما ذكره المؤرخون وهو من حسناتهم، ولكن التاريخ في الجهة المقابلة قد دوّن جرائم الإبادة بمراكش ووهران وبجاية والقلعة وغيرها، ولذلك كان التعرض لمثل هذا الموضوع بشيء من التأمل والتحليل والموضوعية قد يسلط الضوء على بعض الأخطاء البشرية من المسلمين وفيه تنبيه كذلك على أنه مهما بلغت الأخطاء فلا علاقة لها بتعاليم الدين الإسلامي.

وما يمكن التنبيه عليه كذلك ولو عرضاً، هو أن البربر قد حكموا أنفسهم مدة ليست بالهينة بل إن معظم الحقب التاريخية كان فيها البربر بالمغرب مستقلين استقلالاً سياسياً، بل إن ولاءهم للفاطميين أو للعباسيين كان ولاء دينياً أما الولاء السياسي الحقيقي فقد كان بأيديهم، وتأكيد لذلك يقول الذهبي: (أول من كان فيهم الملك من البربر صنهاجة⁽²⁾ ثم كتامة

وتونس مما لا مجال لوصفه، وفي ظل هذه الأحداث كانت قد تطورت الدولة الموحدية قاضية على خصومها واحدا تلو الآخر منتهزة الفرص للسيطرة على الجزائر وتونس، وهو ما يؤكده صاحب كتاب الاستقصاء في النص الآتي: (... بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد إفريقية بسبب تنازع ملوكها من بني زيري بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها فأجمع الرحلة إلى غزوها بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه فخرج من مراکش أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة..⁽⁵⁾ فمن خلال هذا النص التاريخي نجد أن الموحيدين انتهزوا الفرص المناسبة للقضاء على خصومهم، وهذا من سنن كل الدويلات التي نشأت عبر التاريخ، وقد عبر عن ذلك الدكتور عبد الحليم عويس بقوله: لقد كانت دولة بني حماد انفصالا من انفصال .. وسارت في طريقها فكان طريقها على امتداده زائرا بالمشاكل، وعلى امتداد هذا التاريخ كانت الحروب شبه دائمة بين الحماديين وقبيلة زناتة وبني زيري⁽⁶⁾.

فقد بنوا مجدهم على أنقاض من كان

العربية (ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن علي اليازوري في أمر ابن باديس فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بني هلال وبني جشم الذين بالصعيد وأن يتقدم إليهم بالاصطناع ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها بدلا من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بآبن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالا بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك. فبعث المستنصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببيعير ودينار لكل واحد منهم وأباح لهم إجازة النيل وقال لهم قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآباق فلا تفتقرون بعدها، وكتب اليازوري إلى المعز أما بعد فقد أنقذنا إليكم خيولا فحولوا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا، فشرهت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة فنزلوا بها واستباحوها⁽⁴⁾.

وقد أخرج هؤلاء حضارة القيروان

والأدهى من ذلك كله التفتيل البشع مع القدرة على العفو أو على الأقل السجن، والترتيب التاريخي للأحداث يمكن استنتاجه من النص الآتي: (ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون على ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جموعا عظيمة وخرج من مراکش يقصد مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا في شهور سنة 540هـ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى يحيى ابن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب في البحر حتى أتى مدينة بونة⁽⁸⁾ وهي أول حد بلاد أفريقية ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينة المغرب فأرسل إليه عبد المؤمن رحمه الله بالجيوش فاستنزل وأتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في نفسه وأهله ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمان فيها نشأ ملكهم ومنها

قبلهم، فمثلا قد كان مجون وضعف يحيى بن عبد العزيز الصنهاجي آخر ملوك الحماديين، وكثرة النزاعات التي ذكرت من أهم المساعدات على السيطرة السهلة على البلاد الجزائرية التي كان يحكمها بني حماد.

سيطرة الموحدين على قلعة بني حماد

وبجاية:

والتاريخ يعيد نفسه، فبعد أن تضافرت الظروف ودعت الأسباب إلى سير الموحدين بقيادة عبد المؤمن إلى البلاد الجزائرية، قام فعلا بغزوها- وقد كان هذا كارثة أخرى تسجل للموحدين، بعد الإبادة الجماعية للمرابطين، وتتبع آثارهم في البلاد المغربية- فقصدوا بجاية وحاصروها حصارا شديدا ودخلوها دون كثير عناء، ومنها إلى قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمان، واقتحموها عنوة، فخربوها، وأضرموا النار في مساكنها، وقتلوا جيوش بن العزيز⁽⁷⁾، وهو ما يعتبر تخريبا وغزوا لا فتحا كما يصطلح عليه بعض المؤرخين، لأن المطالع على الحال التي آلت إليها الدولة الحمادية آنذاك سيجد أنه كان بالإمكان عدم اللجوء إلى الحرق والتخريب، بل

انبعث أمرهم.

لا مزيد عليها.

وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر وجدهم الأكبر حماد من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم أعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها، فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمرا ودولتهم قائمة وأمرهم نافذا لا ينازعهم أحد شيئا مما في أيديهم إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته أبو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي تقدم.

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من قوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعا إلى مراکش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا إلى مراکش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما وأظهر عبد المؤمن عناية به

بلغني من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوما فذكروا تعذر الصرف فقال يحيى أما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة وعبيدي في كل يوم يشكون إلي ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك أن عاداتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا إن شاء الله عز وجل.

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتبا للأمور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور وإعداد سلاح واستئزال مستعص وتأمين سبل وإحسان إلى رعية وما هذا سبيله⁽⁹⁾ فكانت نهاية الحماديين بكل ما حملته من مفارقات وغرائب فالأبرياء يقتلون وحكامهم يكرمون، والحصار والقتل والتحريق ينال

ينبغي أن نعلم أن أخطاء الأشخاص لا تعني بأي حال من الأحوال أنها تعاليم إسلامية، وما فعله الموحدون تحت أي غطاء من السنة أو العقيدة المهدوية أو دعوى محاربة الخوارج أو البدع لا يمكن تبريره ولا يمكن الإفتاء بجوازه مهما حاول ذلك من حاول، إن أخطاء العبيدين مشؤومة وكثيرة، ولكنها كذلك من الإسلام بعيدة، فهل نحارب الخطأ بالخطأ، عبد المؤمن - كما جاء في بعض من ترجموا له - على جلالة قدره وغزارة علمه إلا أن اضطهاد الصنهاجيين الحماديين والمرابطين وغيرهم ماهو بالتصرف الحكيم مهما بلغ العدو من الطغيان، كيف ذلك وقد فعل أكثر مما فعله في بجاية وقلعة بني حماد، فنجد أن التاريخ شاهد على الإبادة الجماعية التي تعرض لها المرابطون بوهران رغم استسلامهم، فليتأمل قارئ التاريخ في أخطاء الأشخاص، وكي يكون بمنأى عن الشبهات لا بد أن يفرق بين تلك التصرفات الخاطئة المشينة، وبين تعاليم الإسلام.

ومما يدعو للدهشة والحيرة أن عبد المؤمن قد أكرم آخر ملوك بني حماد إكراما غير منتظر، وفي هذا يقول صاحب المعجب: (... ولما ملك عبد المؤمن ببجاية

من حضارة كانت قائمة تاركة ورائها الملك دولة أخرى.

هكذا سطر هؤلاء تاريخهم ببناء مجدهم على أنقاض غيرهم، ورحم الله الدكتور عويس عندما عبر عن تلك الدولة المتساقطة عبر تاريخ هذه الأمة بالأوراق الذابلة في حضارتنا، فمن بين التعبيرات التي أتى بها في كتابه دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية والتي تستحق التأمل والنظر قوله في دراسته لسقوط الموحيدين: (إنك تستطيع أن تنتصر في معركة، وأن تقهر عدوك وأن تحكم بالموت على مدينة بريئة، وقد يكون ذلك انتصارا لك ويمد التاريخ في عمرك عدة سنوات !!).

لكن .. أن تصنع حضارة وأن تبني دولة تبقى .. أن تمد التاريخ بصناع مبدعين .. أن تفعل ذلك وأكثر منه، فهناك طريق آخر .. طريق ليس " الدم " من معالمة، بل هو أبرز صخوره وعوائقه .

هذه حقيقة من حقائق الحضارة أكثر منها

حقيقة من حقائق التاريخ !!⁽¹⁰⁾

إنه لمن المؤسف أن نقرأ مثل تلك الأحداث في تاريخ حضارتنا، والأدهى أن نلصقها بالعقيدة الإسلامية الصافية، إذ

يتعرض إلى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك أن بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بأمانه...⁽¹²⁾ وهو موقف يحسب لعبد المؤمن رغم أنه قد اعتمد السيف والدماء في بناء الدولة، وتصرفه هذا ببجاية يخالفه تماماً - كما ذكر - ما فعله بقلعة بني حماد، حيث أنه بعد إحكام السيطرة عليها أضرموا فيها النيران وسلبوا الأموال بعد هروب أهلها إلى الجبال.

والخلاصة أن تاريخ دول المغرب الكبير مليء بالأحداث التي تدعو إلى التأمل والنظر، ففيها الكثير من المفارقات العجيبة، والتناقضات الغريبة.

النظرات والتأملات:

من الممكن أن نخلص إلى العديد من التأملات والنظرات، التي حملتها تلك الأحداث:

- من مبادئ دولة الموحدين القضاء على الخرافة والبدع وتصحيح العقائد الفاسدة آنذاك كالشيع والخوارج ولكن ما فعلوه يعد سابقة من حيث كثرة الفقهاء والعلماء في مجالسهم وما هو رد فعلهم إزاء قتل النفوس البريئة المسلمة، إنها لوقف مدهشة في تاريخنا.

والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من قوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعا إلى مراكش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها...⁽¹¹⁾، قد نتساءل ونقول أن هذا تصرف لائق جدا، وهو ما تقتضيه الواجبات الإنسانية، ولكن المفارقة هو أن عبد المؤمن قد خرب معلما تاريخيا عمرانيا هو القلعة بالحرق والتخريب، وقد أضاف إلى ذلك كله التقتيل الجماعي البشع، وهو ما جعلني أتوقف طويلا عند هذا الموقف من عبد المؤمن مع يحيى بن عبد العزيز ملك الحماديين.

ومن المواقف التي تستدعي الوقوف هو أن عبد المؤمن لم يتعرض لأموال أهل بجاية، وهو ما نقله: (...ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال.... لما فتح عبد المؤمن بجاية لم

الحماديين ومن المنتظر هو قتل رؤوسهم، كما فعل الموحدون بالمرابطين إلا أنه قد حدث العكس وهو أنهم قد أكرموا يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد وهو مالا يقبله الميزان التاريخي لتلك الدولة وما فعلته بالمسلمين بدعوى القضاء على الخرافة وإحياء السنة.

هذا ما استطعت تلخيصه والتعرض إليه علّه يكون عبرة تاريخية تسهم في إعادة النظر في النماذج الفاشلة التي تمثل جزءاً من بناء هذه الأمة علّها تصحح المنهج وتساير العصر ومتطلباته بتطبيق الإسلام الصحيح.

أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يتجاوز ما فيها من خطأ.

- التأمل في التخريب والنهب والسبي الذي عان منه الحماديون والمرابطون وغيرهم رغم أنهم وباتفاق العلماء يعتبرون من أهل القبلة المسلمين الذين لا يسلب مالهم ويحرم قتلهم.

- السنة الإلهية واحدة فكل من أسس بنيانه على غير هدى منه فهو آيل للسقوط لا محالة، فالحماديون نازعوا بني زيري الحكم والوحدة بين الجزائر وتونس وقد أتى من قضى عليهم كما قضى على بني عمومهم بتونس.

- رغم ما فعله الموحدون ببجاية وقلعة بني حماد إلا أنه قد حدث ما يدعوا للاستغراب - كما سبق - بل إنه يترك الحليم حيراناً، فقد قتل الموحدون الخلق الكثير من الأبرياء وحتى المقاومين من

الهوامش

- (1). (قلعة بني حماد هي أشير) معجم البلدان ج3 ص113
- (2). صنهاجة و الصنهاجي بضم الصاد المهملة وكسرهما وسكون النون وبعد الألف جيم نسبة إلى صنهاجة قبيلة مشهورة من حمير وهي بالمغرب قال ابن دريد: صنهاجة: بضم الصاد لا يجوز غير ذلك انتهى ما أورده ابن خلكان ملخصاً (شذرات الذهب ج02 ص179)

- (3). سير أعلام النبلاء ج 18 428/429
- (4). كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء، سنة: 1997 الطبعة الأولى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري ج 01 ص 165
- (5). نفس المصدر ج 01 ص 120.
- (6). دراسة لسقوط ثلاثين دولة لإسلامية لعبد الحليم عويس ص 168
- (7). صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي دولة الموحدين علي محمد الصلابي ص 87
- (8). مدينة بونة: وسطة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها كالاريس وهي على نحر البحر وكانت لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح موجودة وكان فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ولها بساتين قليلة وشجر وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها وأكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في أوقات الإصابات... وبها معادن حديد جيد ويزرع بأرضها الكتان والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن وأكثر سوائهم البقر ولها أقاليم وأرض واسعة تغلبت العرب عليها... وعلى مدينة بونة وبجنيها جبل يدوغ وهو عالي الذروة سامي القمة وبه معادن الحديد التي ذكرناها آنفا... كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج 01 ص 291
- (9). المعجب ج 01 ص 204 إلى 207
- (10). دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية لعبد الحليم عويس ص 171
- (11). المعجب ج 01 ص 206.
- (12). كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء، سنة: 1997 الطبعة الأولى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري ج 01 ص 121.

